أطفال يدفعون الثمن..

جاءهم خبر قتله!!

انهيار أسر وضياع أبنائها على خلفيات قضايا الثأر

أمهات ينتظرن أولادهن على أبواب المدارس خوفاً من الانتقام المجهول

أطفال يتذوقون اليُتمْ وآباؤهم أحياء يرزقون

الذين فقدوا حنان الأبوّة مبكراً وتجرعوا منقوع الثأر فانهم الآن لا يفكرون بشيء مثلما يفكرون بالثأر لوالدهم. واحد من أبناء عمومتهم قال «أكبر أطفال العزي يفكر كالرجال.. ويتمنى اليوم الذي سيثأر فيه لأبيه» انه جحيم طويل الأمد يعيشه الأبناء على خلفية التركة التي خلّفها الآباء يساعد في لهيبها ما تمارسه الأسر من حشو وتلقين للحقد وزرع الرغبة بالانتقام، بل وربطها بالرجولة فيشعر الأبناء بأنها واجب يحملونه على عواتقهم ويجب أن يؤدونه مهما طال الزمن.

عواقب نفسية

هل يستطيع الفرد انجاز أي عمل بالشكل المطلوب وهو في حالة قلق طارئ؟ أعتقد أن الاجابة ستكون «لا» فعندما نكون في حالة قلق أو اضطراب نفسي طارئ نشعر بأن كل شيء من حولنا في حالة عدم استقرار ومجافي للطريق الصح وقد نعيد النظر في ترتيب الأشياء المرتبة.. اننا غير قادرين على الاستمرار في هذه الحياة ونسعى للخروج منها عبر أقصر الطرق هذا ونحن في حالة ضعف ونتعرض لحالة طارئة ربما كانت نتيجة لضغط في العمل أو خلاف عائلي بسيط أو حالة افلاس قصيرة المدى، أما في حالة تحمل قضية بحجم الثأر مرتبطة بحياة أو موت أشخاص فإن الشخص يظل في حالة اللا تركيز وهذا ينعكس سلباً على تصرفاته وانتاجه.

يقول الباحث. عبدالسلام العبسي – ماجستير علم اجتماع: «الضغوط الاجتماعية التي تمارس ضد الفرد المتحمل لقضية الثأر تجعله في حالة اهمال لكل شيء قد تصل الى اهماله لحالته الصحية وهذا ينعكس سلباً على الفرد والمجتمع».

انهم يفكرون فقط في كيفية الانتقام والوصول الى الهدف الثأري وهذا يجعلهم خارج نطاق خدمة الأسر التي تنتظرهم. يقول أحد هؤلاء: «لقد ضيعنا كل شيء في سبيل الثأر ولا نستطيع الآن التخلي عن هذا الهدف».

هذا الرجل الذي كنت أعرف أحد أقربائه هو العائل الوحيد لأربعة عشر شخصاً – عائلته وعائلة أخيه المقتول – أبناؤه الكبار تركوا المدارس وذهبوا للبحث عن لقمة العيش بعد أن أهمل والدهم المحل التجاري الذي كانوا يقتاتون منه أما أبناء العائلة الثانية فقد تحمّلوا كلمات وجمل المجتمع المحيط بهم والذي دائماً يشجعهم على الثأر لوالدهم، أحد أقاربهم قال: «ما يعملونه عبث» بعد أن تركوا مدارسهم وفشلوا في الوصول الى الجاني.. احترفوا الجلوس في الطرقات ومضايقة الجيران وارتكاب الأخطاء التي قادتهم أكثر من مرة الى أقسام الشرطة.

والدتهم التي كانت تطالبهم في يومٍ وعواقبه ويعود الى بيته متغير الوجه مفجوع الفؤاد يتأمل تلك المرآة التي مازالت تبكي صغيرها بحرقة فتكبر مأساته ويعظم همه، كم كان تعيس الحظ؟ وكم سيظل على هذه الحالة؟ يكرر شريط الحادثة في مخيلته عدة مرات في اليوم لكن دون جدوى لا شيء يمكن أن يعيد ولده الى الحياة ولا شيء سينجح في جعله يلهو بين أقرانه، فقد الرغبة في مزاولة عمله وزادت أيام تغيبه عن المدرسة التي يعمل بها مدرساً لمادة الكيمياء.. طقوسه اليومية اختلقت.. روحه المرحة اختفت.. أشياء كثيرة أصابها الدمار زاد من ذلك عدم انجابه مجدداً. الأطباء الذين زارهم أخبروه أن السبب هو الحالة النفسية والصحية السيئة التي يمر بها وأخبروه بقدرته على الانجاب اذا تجاوز تلك الحالة، انه يفكر بجدية في كيفية تجاوز حالته ومسح ذلك المشهد، لكن بلا فائدة فمازال يتذكر ذلك المشهد حينما كان محمد واقفاً لا يفهم معنى تلك الصيحات ولا أي ذنب اقترفه، لماذا كان يصرخ الناس ويجرون في الطرقات؟ هو فقط ظل واقفاً ببراءة الطفولة وجهلها لما يحدث حتى أتت غادرتان لم ترحما طفولته ولم تقرأ تلك الملامح المتسامحة التي كانت معبأة بالغرابة لما يحدث.

كان محمد طفلاً عاجزاً عن فهم ما يدور وسيظل كذلك.. سال دمه على الأرض وهو مايزال عاجزاً عن معرفة الذنب الذي يجازى عليه.. ترى كم محمد أخذتهم طلقات نارية مثل هذه؟!

انهم كثيرون بلا شك لكنهم متفرقون يعيشون حيث تشتعل فتنة الثأر. شمس الدين الذي سكنه الاحباط والاكتئاب من يومها الى الآن لا يعرف من الجاني حيث كان هناك تبادل لاطلاق النار ولم تستطع أجهزة البحث الجنائي تحديد من أين أتت الرصاصات، وبغض النظر عن من القاتل فالطفل قد رحل تاركاً لنا سؤالاً بحجم الظاهرة.. الى متى سيظل الأطفال يدفعون أرواحهم الطاهرة قرباناً للثارات؟!

هل نستطيع الاجابة وتحديد الزمن؟ في الوقت الحالي لا أعتقد فالمأساة مستمرة وأحدث ضحاياها الطفل عدي الذي لم يكمل سنته الثانية انه يرقد الآن في أحد المستشفيات الخاصة بعد أن اخترقت جسده الغض أربع طلقات نارية لم تستح من طراوة جسده ولا صغر سنه.

لم يكن لؤي يحمل مسدساً ولا رشاشاً ولم يكن مترسباً خلف أحد الجدران بانتظار ضحية. ومازال صغيراً جداً على حياكة المؤامرات والدسائس بل كان يلهو في حضن جدته التي أصدرت احدى الطلقات النارية قراراً بإيقاف حياتها عند هذا الحد في فناء منزلها.

عدي زيد سبتان يتوجع الآن في سريره جاهلاً الجرم الذي نال ما ناله جزاءً.. هو لم يدرك بعد أنه أكثر حظاً من جدته حيث أصابته أربع طلقات نارية فقط لم تنه حياته.

حدث ذلك في مديرية كشر محافظة حجة حيث تشهد المنطقة قضية ثأر حية عمرها بضعة عشرة سنة راح ضحيتها ما يقارب عشرين قتيلاً وانعكست سلباً على أهالي المنطقة الذين فقدوا الأمان في مزارعهم وأسواقهم وشوارعهم حتى المدارس لم تخل من هذا الشبح حيث أغلقت أبوابها لمدة سنتين وحرم التلاميذ من تعليمهم على ذمة قضايا الثارات بين عدد من القبائل.

طفل وأربع نساء

فقدت الشعور بالأمان بفقدانها الزوج قتيلاً في قضية ثأر لا تدري ملابسات بدايتها، زارهم الحزن ضيفاً ثم صار مقيماً عندهم وأصبح أحد أفراد العائلة المنكوبة، لم يمر وقت طويل على مقتل رب الأسرة حتى جاءت يد الثأر البغيضة على الابن البكر ليتبع والده الى الحياة الأبدية بغير ذنب أو جريمة.. كان عصاها وسندها في الحياة تعلق على عاتقه حماية أخواته الأربع وأخيه الصغير.. كان كلما مر يوم تأملت ملامحه بإمعان.. «انه يكبر.. سيأتي اليوم الذي أعتمد عليه» وتصلي من أجل ذلك وتقول: «يا الهي متى سيشتد عوده؟!» كم تبقى من العمر؟ وهل سأظل هنا الى أن يصبح رجلاً راشداً يظللنا بجناحه؟ كل أسئلتها وترقبها وشوقها قتلتهن رصاصة غدر جاءت في غير وقتها.. أي طامة جديدة نزلت على هذا البيت؟! لم تفق الأم وأطفالها من صدمة ما حدث، وعندما عادت الحياة تدب في أوصالها أيقنت بالضياع وأنها وأطفالها في غير مأمن وليس لها مقام في قريتها التي لا تبعد كثيراً عن العاصمة ولذلك قررت الرحيل.. شدت رحالها تاركة وراءها كماً هائلاً من الألم والفجيعة والذكرى الموحشة في قرية يشرب سكانها الموت من أباريق الثأر.

جاءت الى المدينة تطلب الأمان والهجعة والستر، أنها غير مستعدة لفقدان طفلها الذي لم يبلغ الثانية عشرة من العمر، لكن الخوف تمكن منها ومن أخواته الأربع.

تاهت منها الطمأنينة بين أوراق ومواقف وصور غارقة في البشاعة، تصاحب طفلها في رحلته اليومية من البيت الى المدرسة، بعد أن أصبح الولد الوحيد الذي تنظر اليه مجموعة نسوة برجاء وأمل.. انه الرجل الوحيد الذي يحق له حمايتهن، لكن الجميع يخشى من أوراق لم يكشفها القدر بعد.

قضية الأسبوع
Thu 15 Apr..2004
25/2/1425
No (14400)